الفصل الثالث والعشرون
الدوارة الرملية

كان المقدم حميد ثائر الأعصاب حين عاد الى منزله تلك الليلة، بعد أن همس له أحد أصدقائه برغبة المصريين في نقله الى مصر. وكانـت زوجته تتهيأ للذهاب معه الى حفلة موسيقية تقيمهـا احـدى الـسفارات الأجنبية، وتكمل أمام المرآة زينتها. نظر اليها في ضيق وقال:

-إخلعي ثيابك.. لن نذهب الى الحفلة الليلة.

فتجهم وجهها وتنهدت بحسرة وهي تتأمل ثوبها الباريـسي الجديـد الذي لن يراه أحد الليلة فتستمتع بنظرات الإعجاب التي ترنو بها أعـين الرجال اليها، والحسد الذي ترشقها به النساء. وخلعت ثوبهـا بعـصبية وقالت بلهجة فاترة:

-هل أهيئ لك العشاء؟ أنا عدت الى الريجيم، فقد زاد وزنـي فـي الأشهر الماضية، وهناك أثواب من المجموعة الجديدة أصـبحت ضـيقة علي.

-لا، لست أشتهي..

كان يفكر بذلك القرف الذي يعيش فيه، ولا يجد منه مخرجا.

الدوارة الرملية تحتفر تحت قدميه فيغوص في الحمأة وهو يدري أنها ستغرقه في جوفها لامحالة.. الأرض طرية لزجة حوله وليس من صخرة تمسك به وتحميه من انهياره المحتم..

-لماذا أنا بالذات من يقترف هذه الجرائم؟

لقد أحب الحياة والمجد والقوة فاذا بها تقوده الى الجريمة.. ومـرت في خياله أيام كان لايزال فيها نظيفا. وجلجل في سمعه صوت إحـسان يضحك وينعش الجو حوله بخفة روحه وحضور بديهته وحلو مزاحه..

لماذا إحسان يحتل فكره في تلك الليلة؟

الشيء بالشيء يذكر.. وما كان فرج الله صديقا له كما كان إحـسان وكان أحمد.. صداقة المراهقة والشباب.. وهمس لنفسه وهو يشرب حبوبا منومة تهدئ أعصابه:

انتهى دوري.. أسلمتهم إياه ولكنني لاأريد أن يؤدي الأمر بي الـى جريمة أخرى..

وأغفى وهو يفكر في ضحاياه ويختلق الأعذار لنفـسه بأنـه لـيس مسؤولا.. وأن من يصدر الأوامر العليا هو أحق بالمسؤولية واللوم منه.. ولكن النوم خاصمه.. لقد غدا عدوا له متربصا به يعد له في كـل ليلـة سياطا خفية تجلد روحه فيشعر أنه موشـك علـى الإنهيـار العـصبي والجنون.

كان إحسان بل هو أحمد بل هو فرج الله بل هو أمين الطاهر، بل هو مزيج من هؤلاء.. هويته غير ثابتة، ولكن شخصية إحسان تغلب عليه.. كان يسير بخطوات ثابتة نحوه، شعره محترق وشفتاه مسلوختان. ووقف قرب سريره وحدق فيه بصمت بعينين متسعتين لاتطرفان. واقشعر بدن المقدم وانتصب شعر رأسه كأنما أيد غير منظورة تـشده، وحـاول أن يصيح ليطرد الشبح الرهيب المشوه، ولكن صوته اختنق وأخذ يفح:

-لست أنا، لست أنا.

-هل عاقبتني لأنني كنت أمزح معك وأدعوك سرج حمـار؟ كـان مزاحا بين أصدقاء.. أيروقك أنني فقدت القدرة على الضحك؟ أنظر الي،

ماعدت أستطيع فتح فمي لأضحك.. ولكن القرقرة تخرج مع ذلـك مـن داخلي.

وسمع المقدم صوت قرقرة تشبه قرقرة إحسان ولكن الوجـه جامـد والعينين لاتطرفان.

-لست أنا، لست أنا.

-لماذا خنت أصدقاءك يا سرج؟

-أوامر المصريين.

-لماذا قتلتني؟

-لست أنا لست أنا.

-لماذا هددتني باغتصاب زوجتي أمامي ان لم أعترف. ماذا عنـدي لأعترف به؟ وسمع المقدم القرقرة مرة أخرى ولكن الوجه ضاحك لاأثر للتشويه فيه. واقترب منه يريد وشوشته:

-إبتعد!.. لم تكن نيتي سيئة.. هل أنت مت؟ انك تضحك.. أنت لـم تمت..

-لماذا أسلمتني اليهم؟

لماذا أسلمتني؟ كنت على وشك تجاوز الحدود.. أيغيظك أن أسـبقك لزيارة بلد أجنبي؟ ولكنني كنت مدعوا الى مؤتمر لأنني رجل علم.

-أنت أحمد.. هل أنت أيضا مت؟

-أتظن قضية الشعب خاسرة؟ أنت دائما لم تكن تـؤمن بالـشعب.. ليتني أموت وأعيش في سبيله مائة مرة!..

وعاد الوجه المشوه يقترب منه.

-أنت لست أحمد، أنت إحسان. شاهدتك وأنت مسجى في غرفة التعذيب.. أنت قتلت نفسك.. لماذا لم تنج بنفسك وتعترف حتى بمؤامرة مزورة؟

-هل خفت مني؟ هل تخاف الموت كثيرا؟ الموت سكون وهل يخشى السكون؟ لايشعر الإنسان الاّ بما قبل الموت. كان عليك أن تجرب الموت قبل أن تذيقه لأصدقائك.

وأحس المقدم بأنفاسه تلهب عنقه فصاح:

-إبتعد! الموت يعدي.. أنا لست مجرما، كنت أنفذ الأوامر.

وجلجلت ضحكة إحسان كما كان يفعل قديما.. انها هذه المرة ليست قرقرة مخنوقة، بل ضحكة صافية كبلور مصقول.

-لاأريد أن أسمع ضحكتك.. إذهب عني إذهب!.

-ماذا تعطيني حتى لاأضحك؟ أرضى بعزيمة، بحفلة شاي في شرفة منزلك القديم، بأي شيء تختاره.

-لن يعود الزمن الماضي، لن أستطيع أن أرضيك بشيء، أنا أعرفك، ستسير بين الناس هكذا وتفضحني.. ولكنني قتلتك وارتحت منك..

-ولكنني حي.. كان عليك أن تقتلني مرة واحدة ولكنك قتلتني ثلاثا فنجوت.

-ولكن منظرك رهيب.. ستفزع الأطفال ان سرت هكذا بين الناس.

-ماذا أفعل؟ شوهت وجهي، أطفأت فيه السجائر. ألا تقتني منفضة للسجائر في بيتك؟

-بكيت من أجلك ياإحسان.. صدقني أني بكيت كثيرا!.

-جميل أن تبكي.. اشتريت لزوجتك ثلاثة عشر ثوبا باريسيا بـثمن شفتي وشعري ونور عيني.. أليس لي زوجة وأم تبكيان؟ أبكيت مثلهمـا يا.. ما عدت أعرف اليوم ماذا أسميك لأنك ميت والأسماء للأحياء.

-لماذا ثلاثة عشر؟ انك تنوي قتلي، تهددني.. اذهب، ابتعـد عنـي، تريد أن تقتلني!

-لماذا أقتلك؟ انك ميت.

-أنا ميت؟ وضحك إحسان ضحكة مجلجلة:

-أنت ميت، أنت ميت، أنت ميت!..

وأفاق المقدم والضحكة ترن في مسمعه تضغط عنقه وتكتم أنفاسـه. واستطاع أخيرا أن يصدر صوتا كالحشرجة، فنبهته زوجته الى أنه لاينام نوما مريحا فانقلب الى جنبه الآخر. كان يلهث وقد استبد به الرعـب.. الحمد لله أنه حي.. وبقي منكمشا في فراشه يستعيد تفاصيل الحلم.. نعـم انه ميت.. لم يكن أكثر من زيت لينوا به آلتهم المدمرة ليخرج منها قذرا ملوثا.. خدمهم والآن هم الذين استغنوا عن خدماته.. جاء دوره.. يريدون حكم سوريا بدونه، وسيلقون به في مقبرة الإهمال، في مغارة مطاطيـة سوداء تسع كل من يقبضون الرواتب دون عمل، ولن يبقى له الاّ الإسـم الكريه، وسيعشش على بابه العنكبوت، وحين يحتاجون اليه في المناسبات يخرجونه وينفضون عنه التراب، ثم يصمدونه الى حين ليـشعر محنـة زوال المجد في أقسى مظاهرها، ثم يطوونه ثانية لمناسبة أخرى.

وأصابه شعور التمرد:

-ليمدوا أصابعهم في النار ويخرجوا كستناءهم.. احترقت أصـابعي بما فيه الكفاية..

ولكن القلق لايلبث أن يستولي عليه ويدفعه لتمرد مكتوم فيقلب ليلـة بعد ليلة كل الوجوه التي قد تعيد له حسن السمعة بمغامرة كبيرة ناجحة.. فاذا كان الجميع مستائين، فليكن هو على رأس هذا الاستياء العام!..

* * *